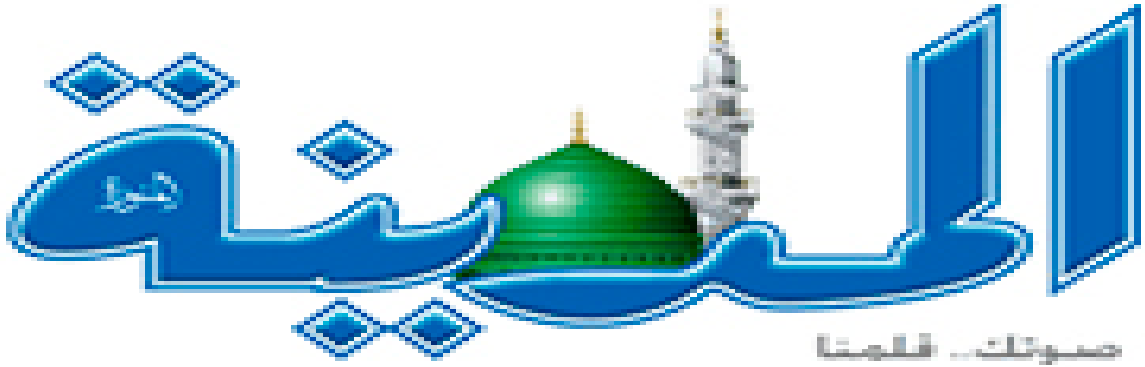




من القصائد التي سجلت بصدقِ الشعور ورقة الإحساس وإنسانية الشاعر قصيدة (الأرملة المرضعة) للشاعر العراقي معروف الرصافي، فقد كان في يوم من الأيام جالساً في دكان صديق له ، وبينما كانا يتجاذبان الحديث إذا بامرأة تحمل معها صحناً تقصد صديقه صاحب الدكان ، فخرج إليها وحدثها همساً ، فانصرفت المرأة. هذا الحدث جعل الرصافي يرسم علامات استفهام كبيرة، فاستفسر من صديقه عنها فقال له: إنها أرملة وأمٌ لیتيمين وهما الآن جیاع، وتريد أن ترهن الصحن كي تشتري لهما خبزاً، فما كان من الرصافي إلا أن لحق بها وأعطاهما اثني عشر قرشاً هي كل ما يملكه في جيبه، فأخذتها بعد تردد وحياء، وغادرها عائداً إلى دكان صديقه وقلبه يعتصر من الألم، ثم عاد إلى بيته فلم يستطع النوم ليلتها وراح يكتب هذه القصيدة التي بدأها بذكر الحادثة ووصف المرأة في اثني عشر بيتاً، منها:

لَقِيتُهَا لَيْتَنِي مَا كُنْتُ أَلْقَاهَا .. تَمْشِي وَقَدْ أَثْقَلَ الْإِمْلَاقُ مَمْشَاهَا

أَثْوَابُهَا رَتَّةٌ وَالرَّجْلُ حَافِيَةٌ .. وَالْدَّمْعُ تَذْرِفُهُ فِي الْخَدِّ عَيْنَاهَا



د. بكرى عساس

بَكَتْ مِنَ الْفَقْرِ فَأَحْمَرَّتْ مَدَامِعُهَا .. وَاصْفَرَّ كَالْوَرْسِ مِنْ جُوعٍ مُحْيَاها

مَاتَ الَّذِي كَانَ يَحْمِيها وَيُسَعِدُها .. فَالْدَّهْرُ مِنْ بَعْدِهِ بِالْفَقْرِ أَشَقَّها

وبعدها صوّر شكواها لربها، ولوعتها لفقد عائلها، ولما ألم بها من فقر وحاجة في أبيات منها:

مَا أَنَسَ لَا أَنَسَ أَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُها .. تَشْكُو إِلَى رَبِّها أَوْصَابَ دُنْيَاها

تَقُولُ يَا رَبِّ، لَا تَتْرُكْ بِلَا لَبَنٍ .. هَذِي الرِّضِيعَةُ وَارْحَمْنِي وَإِيَّها

مَا تَصْنَعُ الْأُمُّ فِي تَرْبِيبِ طِفْلَتِها .. إِنْ مَسَّها الضَّرُّ حَتَّى جَفَّ ثَدْيَاها

يَا رَبِّ مَا حِيلَتِي فِيها وَقَدْ ذُبُلْتُ .. كَزَهْرَةِ الرُّوضِ فَقَدْ الْغَيْثُ أَظْمَاها

وانتهى إلى تصوير حاله هو، وإحساسه بمعاناة هذه الأرملة، فقال:

هَذَا الَّذِي فِي طَرِيقِي كُنْتُ أَسْمَعُهُ .. مِنْها فَأَتَرَ فِي نَفْسِي وَأَشْجَاها

حَتَّى دَنَوْتُ إِلَيْها وَهِيَ مَاشِيَةٌ .. وَأَدْمَعِي أَوْسَعَتْ فِي الْخَدِّ مَجْرَاها

وَقُلْتُ : يَا أُخْتُ مَهْلًا إِنَّنِي رَجُلٌ .. أَشَارِكُ النَّاسَ طُرًّا فِي بَلَايَاها

سَمِعْتُ يَا أُخْتُ شَكْوَى تَهْمِسِينَ بِها .. فِي قَالَةٍ أَوْجَعَتْ قَلْبِي بِفَحْوَاها

هَلْ تَسْمَعُ الْأُخْتُ لِي أَنِّي أَشَاطِرُها .. مَا فِي يَدِي الْآنَ أَسْتَرْضِي بِهِ اللَّهَ

نُمُّ اجْتَذَبْتُ لَهَا مِنْ جَيْبِ مِلْحَقَتِي .. دَرَاهِمًا كُنْتُ أَسْتَبْقِي بِقَايَاها



د. بكرى عساس

وَقُلْتُ يَا أُخْتُ أَرْجُو مِنْكَ تَكْرِمَتِي .. بِأَخْذِهَا دُونَ مَا مَنِّ تَعَشَّاهَا
فَأَرْسَلْتُ نَظْرَةً رَعِشَاءَ رَاجِفَةً .. تَرْمِي السِّهَامَ وَقَلْبِي مِنْ رَمَائِيهَا
وَأَخْرَجْتُ زَفَرَاتٍ مِنْ جَوَانِحِهَا .. كَالنَّارِ تَصْنَعُدُ مِنْ أَعْمَاقٍ أَحْشَاهَا
وَأَجْهَشْتُ ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ بَاكِئَةً .. وَاهَا لِمِثْلِكَ مِنْ ذِي رِقَّةٍ وَاهَا
لَوْ عَمَّ فِي النَّاسِ حِسٌّ مِثْلُ حِسِّكَ لِي .. مَا تَاهَ فِي فَلَوَاتِ الْفَقْرِ مَنْ تَاهَا
أَوْ كَانَ فِي النَّاسِ إِنْصَافٌ وَمَرْحَمَةٌ .. لَمْ تَشْكُ أَرْمَلَةً ضَنْكًا بِدُنْيَاهَا
هَذِي حِكَايَةُ حَالٍ جِئْتُ أَذْكُرُهَا .. وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى الْأَحْرَارِ فَحْوَاهَا
أُولَى الْأَنَامِ بَعْطَفِ النَّاسِ أَرْمَلَةً .. وَأَشْرَفُ النَّاسِ مَنْ بِالْمَالِ وَاسَاهَا.

إنَّ هذه القصيدة التي لم أنقلها كاملة - مع علو قيمتها التصويرية والتعبيرية - كتبها الرصافي بدموع عينيه، فجاء التعبير عن المأساة تجسيدا صادقا، وتعبيرا دقيقا عن مشكلة اجتماعية استأثرت باهتمام المصلحين والمتقنين.